2004 0414 - 0018 - ℓ

الحرب في شهادات لبنانيين بعد 29 سنة على 13 نيسان 1975

شعارات احزاب الحرب

الخيبة

اعتدنا التأريخ لبداية الحرب في لبنان بحادثة ما سمي حادثة "بوسطة عين الرمانة" في 13 نيسان 1975. واليوم انقضت 29 سنة على هذه الحادثة التي يرى كثيرون من المؤرخين والباحثين والعامة من اللبنانيين انها لم تكن سوى حادثة في سلسلة من الحوادث الكثيرة التي شكلت محطات تمهيدية لانفجار جولات الحرب المتعاقبة والمتمادية:

– حادثة تشييع اول "شهيد" لبناني (خليل عز الدين الجمل) سقط في صفوف المقاومة الفلسطينية في الاردن شتاء 1968.

– تظاهرة 23 نيسان 1969 في "ساحة البربير"، وسقوط قتلى فيها.

– حادثة اطلاق النار على موكب تشييع احد الفدائيين الفلسطينيين على طريق بيروت – دمشق، في الكحالة، وسقوط قتلى من المشيعين في شتاء 1969.

– قيام المسلحين الفلسطينيين بالهجوم على محلة حارة حريك، رداً على حادثة الكحالة، وقتل بعض ابنائها وتهجير قسم منهم، شتاء العام نفسه.

– سلسلة من القصف البري والجوي الاسرائيلي لقرى في الجنوب اللبناني بين 1969 و1973 رداً على عمليات الفدائيين الفلسطينيين منها، عقب "اتفاق القاهرة" الذي ترك للفدائيين حرية التحرك العسكري في ما سمي "فتح لند".

– اغتيال اسرائيل القادة الفلسطينيين الثلاثة (محمد يوسف النجار، كمال ناصر، وكمال عدوان) في فردان في 10 نيسان 1973، وانطلاق مواكب حاشدة من التظاهرات تأييداً للمقاومة الفلسطينية، وبروز ازمة حكومية لبنانية مديدة آنذاك.

– اشتباكات عسكرية دامية في بيروت في ايار 1973، بين المسلحين الفلسطينيين وانصارهم من اللبنانيين، والجيش اللبناني، حول المخيمات الفلسطينية وبعض الأحياء البيروتية القريبة من المخيمات.

– حادثة اغتيال النائب اللبناني معروف سعد في صيدا خريف 1974.

لكن الحرب في لبنان ليست سلسلة من هذا النوع من الحوادث العسكرية والسياسية. كما ان التأريخ لما بمثل هذه الحوادث والمشهودة، لم يعد اكثر من تأريخ شامل وعمومي لمنعطفاتها ووقائعها المفصلية.

والحرب اللبنانية ادت، بحسب احصاءات جرت بعد انتهائها، الى مقتل اكثر من 170 الف لبناني، وبلغ عدد الجرحى والمعوقين واصحاب العاهات ضعف هذا العدد. وقد ساهمت هذه الحرب بخلق جيل من الشباب المصاب بما يسمى "الانحراف النفسي" المتولد عن الاحساس بالعدائية والقلق والفراغ، واكثر من اصابتهم هذه الحالات هم الذين شاركوا عملياً في المعارك التي دارت طوال سبعة عشر عاماً.

ومن ناحية ثانية ساهمت الحرب اللبنانية بتغيير توزع السكان الديموغرافي بسبب التهجير القسري والكثيف بين المناطق، حيث اضحت مناطق بأكملها ملاذاً لطوائف من اللون نفسه، بعد ان كان يحكمها التنوع الطائفي. والتهجير الداخلي ليس اكثر وضوحاً من الهجرة الخارجية، حيث لجأت اليد العاملة الشابة والفتية من كل الكفاءات والمستويات، الى المهاجر، فتوطنت هناك على نحو دائم وارتفع عدد المتوطنين الدائمين مع ارتفاع مستوى التحصيل العلمي والفني، ومع انخفاض سن المهاجرين. وفي مقالة بعنوان استنزاف قاتل للادمغة والسواعد، قدر انيس ابي فرح عدد المغتربين (1975–1993) بـ 729 الفاً، ما يشكلون 20 في المئة من سكان لبنان، 63 في المئة منهم يقيمون في الولايات المتحدة الاميركية واستراليا وكندا وفرنسا، ونسبة الجامعيين منهم تبلغ 32 في المئة. ولم تتوقف هذه الهجرة بعد انتهاء الحرب، بل هي في وتيرة متصاعدة وبشكل مستمر بحسب تعليقات السياسيين والمتخصصين في هذا الموضوع.

واليوم بعد مضي 29 سنة على حادثة "بوسطة عين الرمانة" نحاول ان نستعيد الحرب في شهادات وروايات متعددة ومتنوعة، شخصية وفردية، كما عاشها بعض الناس في الاحياء والبيوت والقرى والمدن والمدارس... طوال اكثر من 15 سنة.

من حارة حريك، الى النبعة، الى عين الرمانة، الى الشياح، الى الاشرفية، الى الجنوب، الى البقاع، الى بيروت، وغيرها... هنالك روايات واخبار وشهادات عن حوادث صغيرة وكبيرة في زمن الحرب. وهي روايات واخبار وشهادات تستعيد ازمنة الحرب على نحو جزئي وتفصيلي، قد يكون مساهمة في التاريخ الذي لم يكتب للحرب.

مشهد للحياة المحلية قبل الحرب

ما تبقى من اشجار حارة حريك

صور ومشاهد عن حارة حريك قبل غروب الاختلاط والحياة المحلية

كان الشخص الذي يستعيد هذه الصور والمشاهد طفلا في العاشرة من عمره حين بدأت الحرب في لبنان عام 1975. وهو اليوم في مطلع العقد الرابع من عمره. اما الصور والمشاهد التي يرويها فتستمد قيمتها من دلالتها على نمط الحياة المحلية في زمن ما قبل الحرب في الريف الساحلي اللبناني، زمن الاختلاط الطائفي، ووفادة ناس "غرباء" ومنقطعين عن بيئاتهم الأصلية الى حارة حريك قبل أن تصير ضاحية للعاصمة بيروت، وتتوقف فيها بوصلة الحياة المحلية.

محمد أبي سمرا

هجرات اولى

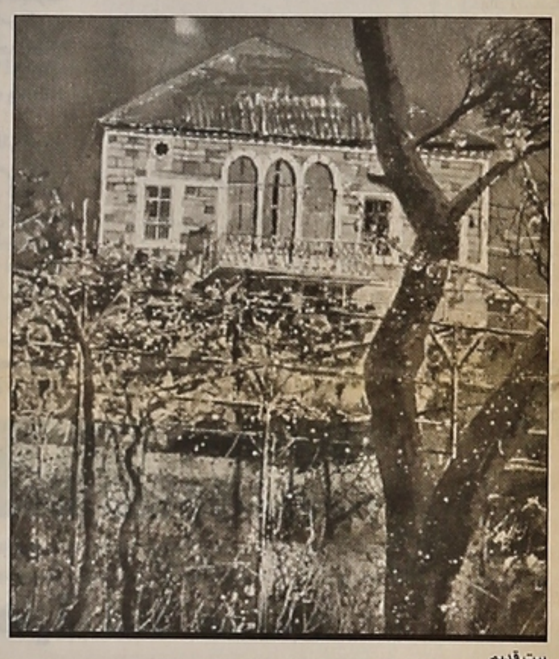

أسرتنا من عائلات حارة حريك المارونية. وهي وفدت من رمحالا في نواحي عاليه، في زمن قد يعود إلى أواسط القرن التاسع عشر. فجدي لأبي من مواليد الحارة، ومنها هاجر الى البرازيل، وإليها عاد من مهجره في أواخر الحرب العالمية الأولى، وفيها أنجب والدي عام 1926، بعد انجابه ابنين وابنتين. وبما حصله في البرازيل اشترى أملاكاً جديدة في بلدته الريفية الساحلية، قبل أن تصير، بعد ما يزيد على عقود ثلاثة، ضاحية للعاصمة اللبنانية. ومن الأخبار التي سمعتها من والدي أن جدي كان رئيساً لمحفل ماسوني في البرازيل، ومات في مطلع ثلاثينات القرن العشرين، فنشأ والدي يتيم الأب في طفولته، ثم توفيت والدته قبل تجاوزه أواسط العقد الثاني من عمره، فترك مدرسته، الفرير، وبدأ يعمل موظفاً، بعد إنهائه المرحلة المتوسطة.

عمل في البداية أمين أحد مخازن "باريس – لندن" الكبرى في وسط بيروت، حيث كان لا يزال يعمل حينما حصلت حوادث 1958، فبقي في ذاكرته مشهد تفجير شاحنة لشركة بيبسي كولا، حين مروره في شارع بشارة الخوري. أما حين ولدت في مطلع نيسان 1965، فكان قد انتقل إلى العمل محاسباً في شركة الداتسون لآل رسامني، في الشياح. وآنذاك كان العيش من الزراعة الجنائنية بين أهالي حارة حريك، خصوصاً في أوساط السكان المسيحيين، قد تراجع وتقلص لصالح العمل في التجارة والمهن والوظائف التجارية وغير التجارية، ومن بيع الأملاك الزراعية التي ارتفعت أسعارها مع تعاظم موجة العمران الحديث. فأنا وأختي نشأنا في شقة استأجرها والدي في بناية حديثة من ثلاث طبقات، بعدما أجبر وإخوته على بيع أملاكهم العقارية، لإيفاء ديون زج تحتها أحد أعمامي الذي كان يعمل صانع وجبات أسنان، وبدد أمواله وبذرها على أهوائه وميله الى حياة البذخ والتفلت.

أمي من عائلة متوسطة في بزبدين في المتن الأعلى، ووالدتها تنتمي إلى أسرة من البورجوازية الريفية المحبة للتعليم والثقافة والشعر والأدب. فجدتي لأمي كانت امرأة مثقفة وحائزة شهادة البروفيه الفرنسية، وأمي كانت تعمل مدرسة في مدرسة القلب الأقدس في بكفيا، قبل زواجها من أبي وإقامتها معه في حارة حريك. والمصادفة وحدها كانت سبيلهما إلى التعارف والحب والزواج.

فأبناء شقيقة والدي كانوا يتعلمون في القسم الداخلي من مدرسة القلب الأقدس في بكفيا. ولأنه كان يملك سيارة خاصة في ذلك الوقت، تعود والدي أن ينقل في سيارته حاجيات أبناء شقيقته مرة في الأسبوع، إلى مدرستهم الداخلية، فتعرف هناك الى معلمتهم المدموزيل تريز، ونشأت بينهما صلة وإلفة، فتحابا وعقدا قرانهما عام 1960 في كنيسة ماريوسف في حارة حريك، غير بعيد من البلدية ومن الشقة السكنية التي استأجراها وأقاما فيها وعاشا حياة أسرة نواتية، رضية وهادئة. وحين أنجب والدي ابنته البكر، سماها مي، على اسم ابنة رب عمله، وكيل شركة الداتسون، الشيخ حسيب الرسامني.

وقد يكون اليتم الذي عاشه والدي في طفولته وصباه، وانصرافه المبكر إلى العمل موظفاً، وخسارته أملاك والده بسبب تبذير أخيه، من العوامل التي أثرت في طبعه وشخصيته. فمال إلى حياة مستقلة عن الروابط العائلية الموسعة، وحافظ على مسافة واضحة في صلته بالناس وفي حياته الاجتماعية. لقد كان كتوماً ومنظماً ومنصرفاً إلى حياته الأسرية وعمله، وإلى المطالعة، شأن والدتي التي كانت شغوفة بالقراءة، كوالدتها التي كان فيلكس فارس أديبها المفضل. ومن الصحف اليومية التي كان والدي يدمن على قراءتها في المنزل، أذكر "لسان الحال" و "رقيب الأحوال"، كما أذكر أنه كان يصطحبني وأختي الى المكتبات لشراء المجلات المصورة التي أدمنا قراءتها في طفولتنا وصبانا. أما التلفزيون بالأسود والأبيض فكان بثه يقتصر على محطتين اثنتين محليتين. وفيما كان بعض جيراننا يزوروننا لحضور برنامج "أبو ملحم" التلفزيوني الأسبوعي الذائع الصيت في الستينات ومطالع السبعينات، كنا، أختي وأنا، نروح نبكي في غرفتنا، لحرماننا من حضور أحد مسلسلي الكاوبوي الشهيرين، "رنتنتان" و "بونانزا" اللذين كانت تبثهما محطة "تلفزيون لبنان المشرق من الحازمية، في وقت بث برنامجي "أبو ملحم" و"أبو سليم الطبل" من محطة "تلفزيون لبنان" في تلة الخياط.

اختلاط المحلي بالوافد

في ذاكرتي وصورها التي وصلتني من أهلي، وتعود الى زمن سابق على صور ذاكرتي الشخصية، كانت حارة حريك أحياء تتخللها الجنائن والبساتين. بعض الأحياء كانت تسمى بأسماء عائلاتها، مثل حي بيت الأبيض، وحي بيت الشويفاتي الذي كنا نسكن في احدى بناياته الحديثة المؤلفة من ثلاث طبقات. وحين أستعيد اليوم صور ذاكرتي، لا أستطيع التمييز بين الصور التي وصلتني من أهلي وتلك التي خبرتها بنفسي. اتذكر وجوهاً وأسماء وأماكن ولحظات وحوادث ومواقف من أزمنة متداخلة، فيصعب علي تنظيمها في سياق متتابع متواتر.

في الشقة التي تعلو بيتنا في البناية، كان يقيم ابن شقيقة والدي وزوجته. وفي شقة الروف سكن دركي من بعاصير ومتزوج من امرأة من برجا في إقليم الخروب. ومن ساكني حينا أتذكر رجلاً مسيحياً من آل الحلبي، وفد قديماً من حلب وانقطع عنها، فتزوج امرأة من آل الشويفاتي، وفتح محلاً لحرفة الخياطة التي كان يتقنها. ومن أشخاص الحي أو شخصياته، أذكر رجلا سنياً بيروتياً اسمه جودت. كان يعمل مشغل بكرات الأفلام في كابين احدى صالات العروض السينمائية "الراحلة" في وسط بيروت القديمة. وكوكب، زوجته، كانت تبدو في هيئة "ارتيست" متقاعدة أو تائبة. وهذا ما اشاع للزوجين بين ساكني الحي صورة لشخصين خرجا من بيئتهما الأهلية السابقة، وانقطعا عنها، للإقامة متواريين في حارة حريك التي راح كثيرون من أهاليها يبيعون أملاكهم في ستينات القرن الفائت لتشييد البنايات عليها. ومن الأخبار الشائعة التي سمعتها في صغري أن شخصاً فلسطينياً أعجب بطبيعة حارة حريك الريفية الهادئة، فاشترى فيها منزلاً باعتباره منزلاً ريفياً، ثم تركه وغاب عنه نحو عشر سنوات، ليجده، حين عودته اليه، محاطاً بالبنايات من الجهات كلها.

والى جودت البيروتي كان يسكن في حينا رجل بسطاوي متزوج من امرأة من عائلة علامة المحلية. كان هذا الرجل يدعى محمد، ويعمل محاسباً في مجلة "الحوادث" التي تعود على أن يجلب لنا عدداً منها في كل أسبوع. وقد شاعت للزوجين في الحي صورة تبرز العنعنات والمناكفات الطائفية التي قيل انها تشوب علاقتهما الزوجية. ومما كنت اسمعه يتردد بين شيعة الحارة، قولهم: "لو سني سني لقلعته". لكن العنعنات والمناكفات الطائفية بين السكان في ذلك الزمان كان يغلب عليها الطابع الفولكلوري والهزلي، كما لو أنها أدوار مسرحية.

ولتكتمل صورة الاختلاط السكاني بين المقيمين المحليين والوافدين، أضيف أن بائعي الخضر والفاكهة على عربات يجرونها، كانوا من حوران في معظمهم. والطريف أن واحداً من هؤلاء كان اسمه حمصوص. أما الذين كانوا يحملون مخابيط لدق السجاد وتنظيفه في مواسم لم السجاد من البيوت وفرشه، فكانوا من الشركس الذين أذكر منهم جورج الشركسي. وكان لمن يسمون عرب سيناء حضور في الحارة. ومن هؤلاء عائلة تحمل كنيتنا العائلية نفسها، وتتكلم بلهجة بدوية يصعب علينا فهمها. وغالباً ما كان ساعي البريد يأتينا برسائل تحمل اسم عائلتنا لنكتشف ان الرسائل لتلك العائلة التي تقاسمنا كنيتنا. وفي ذاكرتي أيضاً صورة لشاب ايراني اسمه شاهبور، ولا ادري متى وفد الى الحارة، فتزوج فتاة مسيحية من عائلاتها المحلية التي، استخفافاً منها به ولغربة اسمه الإيراني على لسانها وفي أسماعها، راحت تدعوه شحتار.

سبقجي ودركي

شباك الصالون في بيتنا كان يطل على محطة الوقود قبالة الكنيسة والشجرة العتيقة الضخمة في ساحتها. ومن الإطلالة نفسها كنا نبصر أيضاً دكان الحي لصاحبها من عائلة واكد، النازلة في حارة حريك منذ زمن قديم، وكان كثيرون من رجالها أصحاب دكاكين. وكان للمقهى المعروف بمقهى حارة حريك مشهده من نافذتنا، لكنه المشهد الذي كان يجرح حياة الدعة البسيطة المتقشفة والسكون في محيطنا القريب. ذلك أن معظم رواد المقهى كانوا من لاعبي "السبق" والباروليه، وجعلوا مقهاهم هذا الذي كان يغص بلاعبي الورق ومدخني النراجيل، مسرحاً لصراخهم وشجاراتهم. ومن مشاهد المقهى أذكر اغارة رجال الدرك عليه، ليفر منه رواده سريعاً ويتوارون في النواحي القريبة. ومرة أبصرت الدركيين ينقضون في المقهى على رجل له كرش صغيرة ويرتدي كنزة كورولية. وقد بدا لي ذلك الرجل في صورة حيوان باندا صغير يحاول عبثاً التفلت من أيدي رجال الدرك، فيما يجره أحدهم من شعره على الرصيف.

كان الدركي البعاصيري أحد لاعبي "الباروليه" في المقهى. ومما شاع عنه في الحي انه كان يهدد زوجته بالطلاق، ويعدها بتحقيقه حين "يعلق شريطة" جديدة ويترقى في السلك العسكري. ومن غرائب الصدف أني التقيت، بعد سنوات كثيرة، قريباً للدركي، فاخبرني انه قد طلق فعلاً زوجته، وأدمن القمار، وهو يقيم في قريته الشوفية.

وكان أبو عبدو الشويفاتي من لاعبي "السبق" أيضاً. واسم عبدو غالباً ما كان أهالي الحارة المسيحيون يمنحونه للبكر من أبنائهم، لأن شفيعهم هو مار عبدا، اضافة الى مار يوسف. وصاحبنا أبو عبدو كان يعمل سائقاً لأتوكار مدرسة راهبات حارة حريك، ولديه صورة عن نفسه قد يكون استمدها من تصوره لقبضايات الأحياء الذين كان يقلد سلوكهم في مشاجراته في المقهى. لذا كانت "قبضنته" تتدرج في باب الموبرة الكلامية والاستعراض اللذين كانا مدار تهكم صحبه الذين أشاعوا أن الدركي البعاصيري كان "يلفي" على زوجة صاحبهم.

المدرسة والكنيسة والكتب

وكان بيتنا يطل على استديو للتصوير الفوتوغرافي في الطبقة الأرضية من بيت قديم. فوق الاستديو كنت غالبا ما أرى بيت الكتائب اللبنانية مقفل الأبواب والنوافذ. وقرب الارزة الكتائبية المرسومة على اللافتة الكبيرة المثبتة على الجدار كانت تظهر عبارة: الكتائب اللبنانية في خدمة لبنان.

لكني لا أذكر أني عرفت كتائبياً في طفولتي وصباي الأول. بلى، ربما كان رجل من آل الشويفاتي، هو شقيق المرأة التي تزوجت سورياً حلبياً وفد الى الحارة وفتح محلاً للخياطة، واحداً من الكتائبيين القلائل. فأبناء حارة حريك كانوا يتحزبون، ويمنحون ولاءهم التقليدي والانتخابي للرئيس كميل شمعون، على ما كنت اسمع في طفولتي وصباي. ووالدي أخذ يوصيني، عند بلوغي سن المراهقة، بألا انتمي الى أي جماعة حزبية، أو أهلية أو عائلية، وأن أعيش مستقلاً ومنقطعاً، بلا حبل صرة يربطني حتى بأقاربي القلائل أصلاً، والذين لم تكن صلتنا بهم قوية وحميمة، خصوصاً بعد وفاة عمتي. أما حياتنا الأسرية فكانت مستقرة ومنظمة، وغير منفتحة على علاقات موسعة، بل تشبه الحياة على النمط الغربي في محافظتها على مسافة واضحة بينها وبين العالم الخارجي. فالأوتوكار كان يأخذني وأختي الكبرى صباحاً الى مدرستنا في شارع بدارو، ويعيدنا منها الى البيت قبيل الغروب بقليل. ثم اني لم ألعب مع الأولاد في الشارع، ولا ذهبت الى الكنيسة الا في المناسبات القليلة المتباعدة. وحين كان كاهن الرعية يسأل أبي لماذا لا يأتي الى الكنيسة، كان أبي يجيبه بأنه يأتي اليها ويقف غالباً خلف العامود، فلا يبصره الكاهن.

لا أمي ولا أبي كانا يحبان سيولة مخالطة الناس، ويحرصان على ألا نكثر من الاختلاط بأولاد الحي. كثيراً ما اتذكرني جالساً مع أبي في سيارته ننتظر أختي الكبرى قرب منازل زملائها وزميلاتها في المدرسة، أولئك الذين كانوا يحيون حفلات أعياد ميلادهم في بيوتهم. وفي انتظار انتهاء هذه الحفلات، كان والدي يشتري مجلتي "سوبرمان" و"الوطواط" ويروح يقرأ لي مقاطع منها في السيارة.

عزلتي عن سيولة الحياة خارج البيت، وضعف الروابط بيننا وبين أقاربنا القليلين أصلاً، وجهاني الى القراءة التي بعدما قطعت شوطاً فيها، وقرأت بعضاً من كتابات مؤرخ لبناني نسبه العائلي كنسب عائلتي، اتخذت هذا المؤرخ مثالاً لي، ورحت أنسب نفسي إليه، ربما تعويضاً مني عن ضعف نسبي العائلي، وعن عدم توافر مناخ ثقافي يشدني اليه واتواصل معه في بيئة حارة حريك المحلية التي لم تكن القراءة والثقافة من عادات أهاليها واهتماماتهم العامة.

كنيسة حارة حريك اليوم

بيت قديم

شركسي وفلسطيني وارثوذوكسي

قد يكون انقطاعي عن سيولة حياة الحي والشارع، وعن مخالطة أمثالي من الأطفال والصبية، من أسباب قوة ذاكرتي البصرية التي اختزنت صور نماذج مميزة من الناس في المحلة.

من هذه النماذج شخص يدعى خضر كان يقيم على حدود مخيم برج البراجنة الفلسطيني، قريباً من بيت عمتي هناك. كان خضر طويلاً وكبير اليدين اللتين تنتهيان بكفين ضخمتين، ويعمل في مشاتل الفاردينيا التي كانت تزرع شتولها في صفائح الزيت المعدنية الفارغة المنتشرة صفوفها في فسحات على حدود المخيم. وفي قامته الضخمة وملامحه الحادة، كان خضر يبدو شبيهاً بالقوقازيين، وتهيأ لي أنه سمي باسمه هذا لأن عينيه خضراوان.

ولم يكن عارفو الشخص الأرثوذكسي المدعو جرجورة يعلمون الشيء الكثير عنه، ولا يسعون الى معرفة أصله وفصله، وماذا يعمل وكيف يعيش وأين، ومن أي مكان أتى إلى الحارة وأقام فيها. كانوا يكتفون بوجوده المنسي بينهم، كأنه الحاضر الغائب الذي لا ينتبهون لحضوره ولا لغيابه. فلا هم يكلمونه، ولا هو يكلمهم، الا حين يطلق صوته فجأة، سائلاً أحدهم ان يساعده في معرفة اسم ما يحتاج اليه لحل لوحات الكلمات المتقاطعة في الصحف والمجلات القديمة التي يجمعها ويحملها وينتحي جانباً منعزلاً في أي وقت ومكان، منصرفاً الى ادمانه حل لوحاتها. وهذا ما كنت أراه يفعله كلما وصلت إلى بيت عمتي، حيث كان يمارس إدمانه في ناحية من الحديقة.

كان جرجورة الأرثوذكسي، هذا الذي تنطوي شخصيته على ملامح نمطية من شخصية مجنون الضيعة، يعتمر قبعة لم تكن لتغادر رأسه، فيما كنت أرى شعراً كثيفاً يتدلى من فتحتي أنفه.

ولأبو سعيد الفلسطيني حضوره الدائم أيضاً في حديقة بيت عمتي وفي البستان الكبير الذي يحوطه. فزوج عمتي كان مزارعاً وبقاراً يربي في أرضه بين 18 و20 بقرة يبيع حليبها ولبنها. وأبو سعيد هو الذي كان يأتي يومياً من المخيم القريب للاعتناء بها واطعامها، لخبرته القديمة في تربية الأبقار. واذكر أبو سعيد حاملاً حزمات الفجل من البستان الى الطريق العام لبيعها لعابرين. وما أن كان يفرغ من عمله هذا حتى تبدأ بينه وبين عمتي مناكفات ومشاحنات حول عدد ربطات الفجل التي اقتلعها من البستان وباعها للعابرين. هذا قبل أن تغادر أمي وعمتي الى صالة السينما في برج البراجنة، حيث كانتا لا تحضران إلا عروض الأفلام الأجنبية التي كان ابن عمتي يشغل بكراتها في كبين الصالة.

لم أعد أذكر في أي وقت من النهارات كان يصدح في حينا صوت بائع حلوى منادياً: جبنية جبنية، فيما يدفع أمامه عربة عليها كشكاً زجاجياً صغيراً يضع فيه الحلوى اللذيذة الشبيهة بالكنافة بالجبن. ولا أدري ان كان البائع فلسطينياً أو شركسياً يشدد في مناداته على لفظ حرف الجين الذي يبدأ به اسم الحلوى التي يبيعها ونتراكض لشرائها منه. وقد يكون تشديد لفظ حرف الجين من ميزات اللهجة الشركسية، على ما كان الرجل الشركسي الذي يعمل في دق السجاد وتنظيفه، يفعل حين يلفظ اسمه: تجورج.

حزن الغروب الشجي

من أقوى المشاهد حضوراً في ذاكرتي لحارة حريك عشية غروب مجتمعها المحلي الريفي، هو مشهد الغروب. كم كان ذلك المشهد يبعث الحزن والعزاء اللذين راح يبعثهما في نفسي صوت فيروز وأغانيها في حقبة تالية من عمري. كان الضوء في ذلك المشهد أصفر باهتاً على البساتين والحدائق والبيوت، كأنه يغلفها بوشاح رقيق من الحزن الشفاف الجميل، الذي كان يشعرني بحنين غريب تخالطه غربة أليفة. قد أكون ورثت هذا كله عن تربيتي البيتية التي ربما نقلت إلي مأساة والدي الصامتة، بل الخرساء، ورسختها عميقاً في وعيي الباطني.

أتذكر مشهد الغروب الأصفر الباهت، فيما كنت أطل من نافذة المطبخ في بيتنا، بينما أتناول الطعام بعد عودتي من مدرستي، مدرسة سيدة الملائكة في شارع بدارو. كأنما ضوء شمس الخريف والربيع، بين العصر والغروب، هي التي كانت تفرش على العالم ذلك الوشاح الرقيق، فينسرح بصري، عبر نافذة مطبخنا، على مشهد يمتد فسيحاً حتى حدود مطار بيروت الدولي الذي كان والدي يصطحبني وأختي في نزهات مسائية على البولفار المؤدي اليه، والمزروعة أرصفته بالأشجار الوارفة والبرسيم والزهور، قبل أن تتحول أخيراً أرضاً بلقعاً.

البيوت حين تمر عليها الحروب

2004 04 14 - 00016 - ℓ
verso